وصف البركة
بين البحتري وابن حمديس
دراسة وموازنة ونقد

دكتور / أحمد محمد علي شومان
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

تمهيد :

أبدع حكام الدولة العباسية وحكام الدولة الأندلسية فى اقامة القصور وحولها البرك والنافورات ومنهم الخليفة المتوكل والمعتمد ابن عباد .

وأبدع الشعراء فى وصف هذه البرك والنافورات وما تزدان به من ثريات ومصابيح أشبه بالثريا وحولها النجوم .

ولذلك كانت هذه الدراسة والموازنة بين شاعرين أبدعا فى وصف البرك ، وكان الابداع فى وصف البرك سبيلا الى الابداع فى التغنى بشمائل الممدوح وأمجاده ومكارمه وانشاءاته .

وصف البركة للبحتري

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
والآنسات اذا لاحت مغانيها
يحسبها أنها من فضل رتبتها
تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها
فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها

أما رأت كالىء الاســـلام يكلؤها
من أن تعـاب ويأتى المجد ببنيهـا

كأن جن ســـليمان الذين ولوا
ابداعهـا فأدقوا فى معانيهـا

فلو تمر بها بلقيس عن عرض
قالت : هى الصرح تمثيلا وتشبيها

تنحط فيهـــا وفود المـاء معجلة
كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضـة البيضـاء سائلة
من السـبائك تجرى مجـاريها

اذا علتها الصبا أبدع لها حبكا
مثل الجواشن مصـقولا حواشيها

فرونق الشمس أحيانا يضاحكها
وريق الغيث أحيـانا يباكيهـا

اذا النجوم تراءت فى جوانبهـا
ايلا حسبت سـماء ركبت فيها

لا يبلغ السمك المحصور غايتها
لبعد ما بين قاصـيها ودانيهـا

يعمن فيهـا بأوســاط مجنحة
كالطير تنفض فى جو خوافيهـا

لهن صحن رحيب فى أسـافلها
اذا انحططن وبهن فى أعاليهـا

تغنى بساتينها القصوى برؤيتها
عن السحائب منحلا عزاليها(١)
محـــفوفة برياض لا تزال ترى
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

وصف البركة لابن حمديس

وضراغم ســكنت عرين رئاســة
تركت خرير المــاء فيه زئــيرا
كأنما غشى النضار جســومها
وأذاب فى أفواههــا البلورا
أســد كأن ســكونها متحرك
فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكــرت فتكاتهــا فكأنمــا
أقعت على أدبارهــا لتثــورا
وتخالهــا والشمس تجلو اونهــا
نارا وألســنها اللواحس نورا
فكأنمــا ســلت ســيوف جداول
ذابت بلا نار فعــدن غــديرا
وكأنما نســج النســيم لمــائه
درعا فقــدر سردها تقــديرا
وبديعــة الثمرات تعبر نحــوها
عيناى بحر عجــائب مســجورا

---

(١) ديوان البحترى ٤ : ٤١٤ .

شـــجرية ذهبيـــة نزعت الى
ســـحر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد سرجت أعضـــائها فكأنمـــا
قبضت بهن من الفضـــاء طيورا
وكأنمـــا تأبى لوقع طيورهـــا
أن تســـتقل بنهضـــها وتطيرا
من كل واقعـــة ترى منقـــارها
ماء كسلســـال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت
جعلت تغـــرد بالميـــاه صـــفيرا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها
فوق الزبرجـــد لؤلؤا منثـــورا
ضـــحكت محاســـنه اليك كأنمـــا
جعنت لها زهر النجوم ثغورا(٢)

التعريف بالشـــاعرين

البحترى • هو الوليد بن عبد الله بن يحيى كنيته أبو عبادة ولقبه « البحترى » نسبة لـــ « بحتر » أحد أجداده ، وينتهى نسبه الى قبيلة « طىء »(٣) ولد بـــ « منبج » ونشأ مطبوعا على قول الشعر وتتلمذ على أبى تمام وكان يعنى بالبديع(٤) •

وهيـــأت له الأقدار الاتصـــال بالخليفة المتوكل وأصـــفى له الود

---

(٢) ديوان ابن حمديس ٥٤٨ •
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ : ١٧٨ •
(٤) معاهد التنصيص للعباس ١ : ١٨١ •

« وأعجب به المتوكل وجعله أحد ندمائه المؤاكلين له السامرين فى مجلسه المقربين منه »(٥) .

وقد أبدع البحترى فى وصف الطبيعة ووصف مظاهر الحضارة التى اتسعت وازدهرت فى عصره كوصف بركة المتوكل ووصف قصوره وما فيها من مظاهر الترف وله ديوان من الشعر حديقة غناء وروضة من رياض الأدب فيحاء يطوى تحت جناحيه صفحات ذهبية من تاريخ العبقرية ويحوى بين دفتيه قطوفا دانية من ثمار الشاعرية »(٦) .

وقد اشتهر بالخيال المحلق والتصوير المبدع الخلاق .

يقول الحصرى : « كان أكثر الناس ابداعا فى الخيال حتى صار لاشتهاره مثلا يقال خيال البحترى(٧) .

* * *

« ابن حمديس » هو أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد ابن البحترى ابن حمديس الأزدى الصقلى واسمه عبد الجبار وحمديس أحد أجداده وليس أبا له وهو عربى الأصل اذ ينتمى نسبه الى قبيلة أزد »(٨) .

ولد فى مدينة « سرقوسة » عام سبعة وأربعين وأربعمائة من الهجرة ثم رحل عنها الى الأندلس ونزل فى « أشبيلية » فى بلاط المعتمد ابن عباد حيث كان المعتمد يجزل الهبات للأدباء والشعراء(٩) .

وقد مكث ابن حمديس فى كنف المعتمد ثلاثة عشر عاما مدح

---

(٥) العمدة لابن رشيق ١ : ٣١ .

(٦) مراسم الوفاء العربى للدكتور عبد السلام سرحان ٥٠ .

(٧) زهر الآداب للحصرى ٣ : ١٢٥ .

(٨) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ : ٢١٢ .

(٩) الأدب العربى فى الأندلس د. عبد العزيز عيسى ٢١٥ .

خلالها المعتمد ووصف قصـــوره ومعاركه مع الفرنجة وظل يتقرب اليه حتى أصبح من أبرز شعرائه(١٠) .

وقد فجر جمال البيئـــة وطيب الهواء وحسن الموقع واعتـــدال الفصـــول وصـــفاء الجو ورقة النســـيم وكثرة المزارع ووفرة الثمرات وازدهار الرياض وضحك الأزهار وشدو الأطيار شاعرية ابن حمديس فهام بها وأقبل عليها يصور جمالها ويفتن فى أوصافها(١١) .

ولقـــد أبدع فى الوصف ابداعا كبيرا فلم ير منظرا من منـــاظر الحياة الا وصفه وصوره .

دراســـة للقصـــيدتين

دراسة قصيدة « البركة » للبحترى :

يستهل الشاعر قصيدته بالغزل ثم يخلص الى وصف البركة فيذكر جمالها حتى انتفوق البحر وتغار منها « دجلة » ولا غرو فبانيها الخليفة راعى الاســـلام وبانى المجد ، وهى من الابداع حتى ليظن أن من قام ببنائها هم جن سليمان عليه السلام الذين أقاموا له الصرح .

ولو أن « باقيس » مرت بها عرضا لحسبتها الصرح نفسه .
والمياه تتدفق فيها من مجاريها كالفضة المذابة
والصبا تهب عليها فتحدث فيها تموجات فتجعلها كالدرع

واذا أشرقت عليها الشمس سطعت كأنها تضحك لها وأحيانا تباكى السحب المطرة فوقها ، وبالليل ترى السماء بنجومها قد ركبت فيها من

---

(١٠) ابن حمديس الصقلى د. سعد اسماعيل شلبى ١٣٠ .
(١١) ابن حمديس الصقلى د. على مصطفى ٩٥ .

انعكاس صور الكواكب والنجوم على سطحها ، وهى من الاتساع بحيث لا يبلغ السمك وهو يعوم فيها نهايتها •

وتحيط بها بساتين تغنى بها فى الرى عن السحب •

والرياض تحفها بأزهارها التى تلونت بلون الطواويس •

دراسة قصيدة « وصف البركة » لابن حمديس :

ابن حمديس يصور البركة والماء ينساب فى جوانبها وعلى حافيتها الأسد يسيل من أفواهها الماء أشبه بزئير الأسد ثم يصف أجسام الأسد وهى تلمع فى أشعة الشمس أشبه بالذهب وقد ذاب فى أفواهها البلور وهذه الأسد على الرغم من سكونها فالناظر اليها يحس بالحركة ويشعر بأنها تتهيأ للوثوب وتستعد للانقضاض وتتحفز للانتقام •

والسيم ينساب فوق صفحة المياه فيغطيها أشبه بالدروع السابغات ثم ينتقل الى وصف الأشجار والأزهار حول الماه الجارية فالاشجار لونها لون الذهب مما يسحر العقول ويخلب الأبصار •

وحول البركة أشجار ذهبية وعلى أغصانها طيور والماء يسيل من أفواهها كاللجين وبدل أن تشدو بالصياح فانها تغرد بسيل الماء •

وهذا الماء الذى يسيل من أفواه الطيور يصب فى صهاريج فقطراته أشبه بالزبرجد •

ولا شك أن ذلك يستهوى النفوس ويدعو الى الاعجاب ويبعث على التأمل •

نظرات فنية فى القصيدتين

التجربة الشعرية عند الشاعرين

التجربة الشعرية عند « البحترى » :

التجربة الشعرية عند البحترى هى الحب والاعجاب والانبهار بشمائل الممدوح وبابداعاته الانشائية .

فوصف البركة والمدح للخليفة يعبر البحترى فيهما عن تجربة صادقة فقد كانت البركة بحيث تعجب كل من يراها ، وكذلك كان البحترى صديقا للمتوكل ومعجبا به ويشهد بذلك حزنه الشديد عليه بعد مقتله. فالبحترى كان صادق الشعور قوى العاطفة عميق الاعجاب متدفق المشاعر وهو يصف هذه البركة ويتغنى بشمائل ممدوحه .

التجربة الشعرية عند « ابن حمديس » :

تماثل التجربة الشعرية عند « ابن حمديس » مثيلتها عند « البحترى » وهى الاعجاب والانبهار بشمائل الممدوح وبابداعاته أيضا فابن حمديس كان الشاعر المصطفى لدى المعتمد بن عباد وكان مقربا منه ومعجبا به ويشهد بذلك حزنه الشديد عليه بعد أسره وزياراته المتكررة له فى سجن أغمات .

الألفاظ والأساليب

الألفاظ والأساليب عند « البحترى » :

البحترى كان رقيق الألفاظ بديعها أستاذه فى ذلك أبو تمام رائد الصنعة البديعية .

وقد تمكن فى الوصف وأبدع فيه وهو فى وصفه لا يكتفى بتجلية

المنظر واضحا كاملا انما يزيد على ذلك تصوير الأثر النفسى الذى يتركه المنظر فى نفسه وبذلك يمتع القارىء مرتين • واحدة وهو ينقل المنظر بكل مكونات جماله وأخرى وهو ينقل احساسه النفسى لنتأثر بالوصف تأثرا مضـــاعفا •

وتتجسد خصائص أسلوبه فى هذه القصيدة •

فمن خصائص أسلوبه العذوبة والرقة حتى أصـــبح جمال اللفظ يكافىء جمال المضمون •

فهو يصف البركة بأنها حسناء

وأتى بقوله « رأى البركة الحسناء رؤيتها » ليدل على جمال الرؤية ورواء المنظر •

وفى قوله » والآنســـات « ليدل على أنها مرتع للحســـن وملهى للجمال وملعب للغزلان من الفتيات •

وعبر بقوله « رتبتها » ليدل على أنها فريدة فى الرتبة ومتميزة فى الدرجة ومتفوقة فى علو المنزلة •

وفى لفظ « الغيرى » ما يدل على عجز دجلة عن اللحوق بجمـــالها وحســـنها فهى تغـــار منها وتحرص على التنـــافس والتســـابق ولكنها لا تلحق بهـــا •

وأتى بلفظ « المنافسة والمباهاة » فى قوله :

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها فى الحسن طورا وأطوارا تباهيها

ليدل على أن المنافســـة تحدث أحيانا من نهر دجلة وان كان غير

قادر على استمرارية المنافسة وان كان يتمتع بقسط من الجمال وقدر كبير من الحسن ، ولذلك قال فى المنافسة «طورا » وفى المباهاة أطوارا .

ولكن المنافسة غالبا ممتنعة لأن حامى البركة والمهتم بشئونها هو خليفة المسلمين .

وجمال البركة فوق طاقة العقل وقدرات البشر ولذلك أتى بهذه الألفاظ : جن سليمان ، ولوا ابداعها ، أدقوا فى معانيها واندفاع الماء من البركة اندفاعا قويا أشبه بالخيل المندفعة عن حبل مجريها ولذلك جاء بهذه الألفاظ .

« تنحط ــ وفود الماء ــ معجلة »

ليدل على السرعة والعجلة وغزارة تدفق الماء واضطرابه أشبه بالخيل المضطربة أو الوفود الكثيرة المتلاحقة ووصف الفضة بقوله « البيضاء » على الرغم من أن الفضة لا تكون الا بيضاء ليدل على الصفاء والنقاء والاشراق والتوهج الذى تتسم به هذه الفضة .

ومن خصائص أسلوبه كثرة المقابلات الشعرية وقد بدا ذلك واضحا جليا فى هذه القصيدة كالمقابلة بين يضاحكها وبباكيها .

والمقابلة بين القاصى والدانى والتواضع والتيه والمحاسن والمساوئ ، وبدو وحضر ، وقوله الجور يسخطها ــ العدل يرضيها .

نجد « البحترى » يختار الألفاظ والأساليب والمفردات التى تكشف عن حبه واعجابه وتعبر عن صدق شعوره ومشاعره بممدوحه وبما أبدعه من جمال القصور وبديع الانشاءات كقوله :

كأنها حين لجت فى تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها

وزادها زينة من بعد زينتها ... ان اسمه حين يدعى من اساميها

محفوفة برياض لا تزال ترى ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

فتدفق البركة فى أمواجهـا أشـبه بتدفق يد الخليفة فى الكرم والعطـاء •

ومن جمال زينتها ومما أضفى عليها مزيدا من الحسن ان اسـمها مرتبط بالخليفة « بركة المتوكل » •

وهكذا نرى الألفاظ والأساليب تعبر تعبيرا صـادقا عن سـعادة البحترى بالبركة وبالممدوح مما جعل ألفاظه وأسـاليبه رقيقة رقراقة عذبة عذوبة ماء البركة وسلاستها •

الألفاظ والأساليب عند « ابن حمديس » :

يتميز أسـلوب ابن حمديس عن أسـلوب البحترى بالجزالة فى الأساليب والقوة فى اختيار الألفاظ ولا تعرف الرقة طريقا اليه •

تلحظ ذلك وهو يصف منظر هذه الوحوش الضـارية على ضفاف البركة ويختار الألفاظ المناسبة للموقف •

فهو يأتى بلفظ « ضراغم » للدلالة على القوة والبسالة ويأتى بلفظ « عرين » للدلالة على المتعة والهيبة المتناهية ويأتى بلفظ « زئير » ليدل على القوة والفتوة والجرأة والاقدام وهو فى الاتيان بهذه الصـفات يخيف أكثر مما يبهـج ويثير الرعب ويثير الفزع ويقـر بالرعب الذى يغشى الناظرين نلحظ ذلك فى قوله :

وضراغم سـكنت عرين رئاسـة تركت خرير المـاء فيه زئيرا

ونختار الألفـاظ التى تثير الرعب أكثر مما تثير الاعجاب والمتعة فى تصويره لهذه الأسد :

أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقعت على أدبارها لتثورا

وأتى بلفظ « كأن سكونها متحرك » ليدل على القوة المنبعثة من داخل المنظر الذى يراه .

وأتى بلفظ « فتك » ليدل على شدة البأس .

« تثور » تدل على توثبها واستعدادها للانقضاض وتهيؤها للانتقام

وبعد أن يصف الوحوش الضارية والأسد الفاتكة والسباع المتوثبة للانتقام يعمد الى وصف معركة حربية وليس الى وصف بركة فالماء وهو ينساب فى الجداول أشبه بالسيوف ، والنسيم فوق ماء البركة يكسوها دروعا سابغات .

فكأنما سلت سيف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه درعا فقدر سردها تقديرا

ويختار الألفاظ التى تناسب ما يرمى اليه ويقصده .

« سلت سيوف جداول » دلالة على القوة .

« نسج » دلالة على الاتقان والاحكام .

« درعا » دلالة على القوة وشدة البأس .

« قدرها تقديرا » دلالة على أنها متقنة النسج محكمة الصنع .

ونجد كثرة الترادف فى الألفاظ ذات المعنى الواحد مثل :

« ضراغم ــ أسد » و « النضار ــ الذهب » « الجداول ــ الغدير » .

والبركة أشبه ببحر عجائب ويأتى بكلمة « عجائب » التى تذهب فيها النفس كل مذهب لما يراه من جمال منظرها وتفنن أوجه الابداع فيها .

والأشجار المذهبة على ضفاف البركة أشبه بالسحر الذى يؤثر فى النهى تأثيرا بالغا .

ويختار هذا الأسلوب « تؤثر تأثيرا » دلالة على التأثير العظيم الذى يتركه فى العقول جمال هذه المناظر والمفاتن من ثمار مدلاة من الأشجار المذهبة التى يتجلى فيها دقة التصوير وجمال الابداع .

ويختار الألفاظ التى تبعث الحياة فى الجمادات كما فعل مع الأسد عندما صور هيئتها بأنها أقعت على أدبارها لتثورا فكذلك الطيور خرورس ولكن شدوها بالماء يجعلها من الفصاح

« خرس — الفصاح — شدت — تغرد — صفير »

خرس تعد من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا

وفى قوله :

وتخالها والشمس تجنو لونها نارا وألسنها اللواحس نورا

لو قال بدل « نارا » « تبرا » لكان أمتع

وتخالها والشمس تجنو لونها تبرا وألسنها اللواحس نورا

ويختار الألفاظ التى تدل على جمال ما يصف من مناظر زاهية فالثمار المدلاة من الأشجار الصناعية « بديعة » .

والأشجار المذهبة تفعل فعل السحر فى النفوس « سحر » وعجائب البركة أشبه بعجائب البحر لكثرتها « بحر عجائب » :

وبديعة الثمرات تعبر نحوها عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى سحر يؤثر فى النهى تأثيرا

والماء فى أفواه الأسد « زئير » وفى أفواه الطيور « شدو وغناء » وهو يساقط من الصهريج « لؤلؤ منثور » والماء وهو يساقط من أفواه الطيور « لجين خالص »

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

الأفكار والمعانى

الأفكار والمعانى عند « البحترى » :

تضمنت القصيدة ثلاثة أفكار رئيسية تندرج تحتها أفكار جزئية

١ ــ الغزل التقليدى فى مطلع القصيدة :

وفيه يطلب من رفاقه أن يعرجوا معه الى دار « ليلى » لتحيتها والسؤال عنها • ثم يدعو لها بالسقيا ويحن الى أيامها الخوالى وعهودها السوالف وتتداعى الذكريات المحببة اليه ويستحضر ساعات القرب ولحظات الود •

٢ ــ وصف البركة :

وفيه يذكر ضخامتها حتى تتفوق البحر ، وتغار منها دجلة ، وقد أبدع فى بنائها حتى ليظن الرائى أن جن سليمان هم الذين قاموا ببنائها ، والمياه تتدفق من البركة كالفضة المسالة ، والصبا تهب عليها فتحدث تموجات فتجعلها كالدروع •

وبالليل ترى السماء بنجومها قد ركبت فيها من انعكاس صور الكواكب والنجوم على سطحها

وهى من الاتساع بحيث لا يبلغ السمك وهو يعوم نهايتها •

٣ ــ مدح الخليفة المتوكل :

وفيه يكسوه ثياب المكارم ويلبسه بردود المجد ويوشيه بحلل العلا فالخلافة تزدهى به وتزدان به وقد أقام العدل بعد الظلم وأحيا الجود بعد البخل وهو بحر لمن يطلب فضله ويبغى رفده ، وقد نال الخلافة عن جدارة ويحسن التصرف فيها بالحق والعدل •

والمعانى التى ساقها فى المطلع الغزلى تقليدية ليس فيهـا جديد وكذلك المعانى التى مدح بها الخليفة ، ولكن المعانى التى استخدمها لوصف البركة كانت بديعة شخصت البركة ، وجعلت منها عملا فوق طاقة البشر ، جمال وابداع وحسن منظر •

الأفكار والمعانى عند « ابن حمديس » :

تضمنت القصيدة ثلاثة أفكار رئيسية أيضـا تندرج تحتها أفكار جزئيـة :

١ ــ وصف القصر الذى بناه المعتمد وشيده :

فلو كحل بنوره أعمى لعاد بصيرا وهو مبعث الحياة فيكاد يحدث فى العظام نشورا وقد عجز الروم والفرس عن بناء مثله ، أو تشييد نظيره • وقد زينت جدرانه بزاهى الألوان وبديعها وهو أشبه بالجنة بل بجنة الفردوس •

٢ ــ وصف البركة بداخل القصر :

يصف الأسد المقامة على ضفافها والمـاء يسيل من أفواهها أشبه بالزئير وهو يسيل فى البركة أشبه بالسيوف المصقولة ويصور النسيم العليل الذى يداعب صفحة المـاء أشـبه بالدروع ويصف الأشـجار الصـناعية وفوق أغصـانها تماثيل الطيور والمـاء يسيل من أفواهها ، فالأشجار مذهبة أشبه بالسحر والمـاء يفيض من أفواه الطيور أشـبه باللجين ، والمـاء الذى يسـاقط من الصـهريج أشبه بالزبرجد وفوقه اللؤلؤ المنثور .

٣ ــ مدح الخليفة المعتمد :

فيصفة بأنه أندى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة وأنه كعبة القصاد وقبلة الآمال ويذكر ما حباه الله به من مواهب جمة ويذكر تفوقه السياسى والثقافى وانتصاراته فى معاركه وشتى أمجاده ومعانى المدح قد سبقه اليها كثير من الشعراء .

ولكن المعانى التى قالها فى وصف البركة كانت بديعة ابداع جمال البركة وتألق منظرها وحسن روائها .

الصـور والخيـال

البحترى وابداعه الشعرى فى وصف « البركة » :

أبدع البحترى فى وصف البركة وأتى فى وصفه بالصـور الفنية الجيدة ، وهـذا ليس غريبـا على البحترى ، ولم تقتصر عبقريته على الصور الجزئية يستعين بها على تصوير معانيه فى صـورة بليغة جميلة مؤثرة جمال ما يصف من منظر أو يمدح من خلائق وانما تظهر عبقريتـه

أيضا فى ابداع تلك الصورة الكلية التي رسمها بدقة وجمال البركة وما يحيط بها .

« ويبدأ الأبيات ببيت فيه نداء عام لكل من يستطيع أن يرى وتلك عادة البحترى حين يفيض به الاحساس والشعور فيود لو أنه وجد أحدا يشاركه فيه أو يصنع ذلك كأنه يشهد الآخرين على هذا الحسن الفياض الذى يراه »(١٢) .

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات اذا لاحت مغانيها

« ويتركنا البحترى لنتخيل ما نتخيله من جمال البركة وبديع حسنها ثم يأخذ بيدنا فى جولة معه نستجلى معالم الحسن ونستكشف مواطن الجمال ، ويبدأ ذلك فى بيان رتبتها ومنزلتها العامة بينها وبين البحور التى هى أكبر منها فاذا عدت عجائب الدنيا فى هذا الباب فانها »(١٣) .

يحسبها أنها من فضل رتبتها تعد واحدة والبحر ثانيها

ويصور « دجلة » بجوار البركة أشبه بالغيرى فدجلة تغار من البركة ومن جمالها فهما أشبه بفتاتين يتباريان فى الحسن والجمال وتغار الواحدة من الأخرى لتفوقها فى الجمال « ويؤكد الخيال نصيب البركة من الحسن والجمال فيخيل الينا أن نهر دجلة قد أحس ذلك منها ورأى فيها ما يثير كوامن الحسد فتملكته الغيرة ودبت فيه روح المباهاة والمنافسة فصنع من ذلك ما يباهى به وينافس ، ان البركة أصبحت مصدر أرق له ذلك حين غدت تشاركه فيما كان يظن أنه منفرد به(١٤) .

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها فى الحسن طورا واطوارا تباهيها

---

(١٢) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى د. طه أبو كريشة ٩٨ .

(١٣) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ٩٩ .

(١٤) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ٩٩ .

« لكن هل يحق لدجلة أن تنافس وتباهى ؟ وهل يستطيع أن تجارى البركة فيما تزدان وتتزين به من ضروب الحسن والزينة ؟ لا • لأن الذى يرعاها ويضفى عليها ما يزيدها بهاء وحسنا هو الخليفة ، واذن فليس لدجلة ما للبركة فلتكف عما هى عليه من الغيرة لأنها لن تستطيع أن تلحق بها مهما صنعت وتصنعت »(١٥) •

أما رأت كاىء الاسلام يكلؤها من أن تعاب وبانى المجد بانيها ويصور المجد ببناء والخليفة هو الذى يقوم بهذا البناء « ويتوقف الفكر عند روعة البناء ويفكر كيف يتأتى هذا الفن لانسان ويرى أن عجائب الصنعة فيه ان تكون الا من قبل الجن الذين قد يصنعون ما يعجز عن صنعه الانسان »(١٦) •

فيبدع فى التصوير فيصور البركة لجمال صنعها بأن الذين تواوا انشاءها ليسوا بشرا عاديين وانما هم من الجن فهى تماثل صرح سليمان عليه السلام وتشابهه :

كأن جن سليمان الذين ولو ابداعها فأدقوا فى معانيها

ويصور « البركة » بالصرح الذى بناه الجن لسليمان عندما قدمت عليه « بلقيس » وأمرها بدخول الصرح الذى بنى من أجلها « فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها »(١٧) حيث التبس عليها الأمر فظنت أنه صرح صنع من الزجاج المتموج حتى يظنه الرائى ماء فيحجم عن الخوض فيه فسمعت من يقول لها « انه صرح ممرد من قوارير »(١٨) •

---

(١٥) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ٩٩ •
(١٦) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ٩٩ •
(١٧) من الآية ٤٤ من سورة النمل •
(١٨) من الآية ٤٤ من سورة النمل •

« وهكذا كانت البركة فقد بطنت أرضيتها وجدرانها من الفضة الخالصة »(١٩) .

فلو تمر بها « بلقيس » من عرض قالت : هى الصرح تمثيلا وتشبيها

وتتكاثر الصور وتتعدد التشبيهات .

وينتقل البحترى من هذه الرؤية الظاهرة الشاملة الى الوقوف عند بعض المعالم الجزئية ويكون الماء أول ما يقف عنده الخيال بالتصوير

ان الماء ينحدر الى البركة فى اندفاع وسرعة وتعجل وتلك صورة لو أراد الخيال نقلها الى الواقع لصورها فى صورة خيل أطلق سراحها وترك لها حبلها فانطلقت تعدو مسرعة فى اندفاع(٢٠) .

تنحط فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

فاذا نظرنا الى لون الماء والى درجة نقائه وصفائه فان الخيال ينقله فى اللوحة سبيكة سائلة من فضة مذابة بيضاء وليس أنقى وأصفى من ذلك ، وليس أمتع للعين من أن ترى مثل هذا الصفاء والنقاء(٢١) فالماء المتدفق صاف رائق يشبه الفضة البيضاء سالت فى مجاريها من السبائك .

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها

وينتقل البحترى الى مشهد آخر من مشاهد هذه البركة فى حالة من بعض أحوالها ذلك حين تمر على صفحتها ريح الصبا فتحدث فيها هذا الموج الهادىء الخفيف الذى يتوالى فى خطوط متتابعة منكسرة ومتداخلة

---

(١٩) تاريخ بغداد لابن الخطيب ١ : ١٠ .

(٢٠) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠٠ .

(٢١) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠١ .

« وينقل الخيال هذه الصورة الى الواقع فيبديها فى صورة دروع الاقاتلين المسرودة المزردة »(٢٢) •

فهو يصـور النسـيم العليل وهو يهب على صفحات ماء البركة فيحركها حركات خفيفة أشبه بالدروع المجاورة جوانبها

اذا عنتها الصـبا أبدت بها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

« ويتابع البحترى رسم الصور فيصور سقوط أشعة الشمس على صفحة المـاء ويجعل من اشراقها وحسنها سـبيلا الى ادخال السرور والبشر الى البركة كأن الأشعة تحولت الى أصابع تناغيها وتضاحكها ومع هذه الصـورة تأتى صورة الغيث الذى ينهمر على صفحة المـاء أحيانا وتكون الشمس حينئذ غائبة غائمة فلا سبيل الى الاضحاك وانما يأخذ الغيث بمائه المنهمر فى مداعبة ثقيلة مبكية فيصـير الغيث المنهمر على ماء البركة أشبه بقطرات الدموع »(٢٣) •

فرونق الشمس أحيانا يضاحكها وريق الغيث أحيانا يباكيهـا

أما اذا جن الليل فهناك مشهد رائع بديع يخلب الأبصار بأنـه مشهد نجوم السماء وقد استقبلتها صفحة المـاء المصقولة الصافية كأنها المرايا فانعكست عليها صورة هذه النجوم انعكاسا يحكى الحقيقة فيظن الرائى من أجل ذلك أن هنا سماء أخرى تناثرت عليها هـذه النجوم ، وبدت بهذا التماثل الدقيق الذى أدى الى الالتباس والخلط بين الأمرين

اذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

---

(٢٢) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠١ •
(٢٣) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠١ •

« ولا يخفى ما فى كلمة « ركبت » من دلالة على التلقى الكامل والانعكاس التام كأن السماء نقلت من مكانها العلوى وركبت أجزاؤها فى هذا المكان السفلى »(٢٤) .

ومن روائع الجمـال فى هذه البركة أسماك الزينة التى وضعت فيها وينقل البحترى صورة هذه الأسماك وهى تقوم وتسبح الى أعلى والى أسفل والى كل اتجاه فى جوانب البركة .

« ويصور هيئة السـمك وهو يعوم بزعانفه فيشبه ذلك بالطيور التى تطير فى الجو ومن ثم تكون ناشرة أجنحتها مظهرة ما خفى تحتها من الخوافى ، وبذلك تتماثل الصورتان صورة نشر زعانف السمك فى جوانبه كأنه الأجنحة وصـورة نشر الطـير لأجنحته وهو يطـير فى الجـو »(٢٥) .

لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصـيها ودانيها
يعمن فيـه بأوسـاط مجنحـة ... كالطير تنقض فى جو خوافيها

« ان رؤية هـذه البركة لا تضفى البهجة والأنس لدى عشـاق الطبيعة من الناس فحسب بل ان للجماد نصـيبا من هذه الرؤية التى تحدث أثرها فى الرائين ، ولقد مثل البحترى ذلك فى صورة البساتين التى ترنوا الى البركة من بعيد فتمدها هذه الرؤية بما يجرى الحيـاة فى أغصـانها وأفنانها ويثبت أورقها وزهورها وبذلك فهى فى غنى عن الغيث ولا حاجة بها الى مائه لكى يرويها ويمدها بأسباب الحياة »(٢٦)

---

(٢٤) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠٢ .
(٢٥) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠٢ .
(٢٦) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠٣ .

تغنى بساتينها القصوى برؤيتها عز السحائب منحلا عزاليها

ترى أى تأثير فى هذه البركة يجعل الأشجار تشعر بالارتواء ؟ انه تأثير من غير شك أتى من قبل تملى الادام الشهى الذى يغنى النظر اليه عن التفكير فى الطعام والشراب •

« ويكمل البحترى اللوحة بتصوير ما يحيط بالبركة لقد أحاطت بها الرياض والحدائق وهى تلبس حللا قشيبة موشـــاة بأجمل ألوان الورود والزهور وانها لألوان متنوعة متداخلة متناســقة فى اتســاق فريد وفى منظر بهيج »(٢٧) وما أشـــبه هذه بألوان ريش الطواويس العجيبة الأشكال •

محفـــوفة برياش لا تزال ترى ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

وهكذا رأينا أن الصور التى اســتخدمها البحترى لوصف البركة كانت بديعة شخصت البركة وجعلت منها عملا فوق طاقة البشر •

ضخامة مع جمـــال وحسن منظر وقد أحســـن استغلال الظواهر الطبيعية من ظهور الشمس وأمطار السحب وحلول الليل وانعكاس ضوء الكواكب والنجوم على سطح المـــاء وهبوب الصبا •

ابن حمديس وابداعه الشعرى فى وصف البركة :

وصف ابن حمديس قصر المعتمد وصوره بأنه أشـــبه بالفردوس من الجنان ويعجز الفرس والروم عن بناء مثله مع أنهم أرباب الصناعة ومشيدو العمران وهو يبعث فى النفس الحياة فلو نظر اليـــه الأعمى لأبصر من حسن جماله وبهائه • يقول ابن حمديس فى وصف القصر :

قصر لو انك قـــد كحلت بنـــوره

أعمى لعاد الى المقـــام بصـــيرا

---

(٢٧) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠٤ ٠

واشتق من معنى الحيـــاة نسيمه
فيكـــاد يحدث للعظـــام نشـــورا

أعيت مصانعه على الفرس الألى
رفعوا البنـــاء وأحكمـــوا التدبيرا

ومضت على الروم الدهور وما بنوا
لمـــلوكهم شـــبها لـــه ونظـــيرا

أذكرتنـــا الفردوس حين أريتنـــا
غرفا رفعت بناءها وقصـــورا(٢٨)

ثم عمد الى وصف البركة والتماثيل الصـــناعية والنافورات التى يزدان بها هذا القصر حيث تمج المياه من أفواهها فى منظر بديع فهو يصـــور البركة فى مختلف مظاهرها فيصـــف الأسد التى أقيمت على ضفافها ، والأشجار المذهبة وعلى غصونها الطيور وهو فى تصـــويره يعمد الى القوة فى مختلف مظاهرها وشتى أحوالها فهو يصـــور هذه الضراغم التى أقيم لها تماثيل بأنها سكنت « عرين الرئاسة » .

فهو يصور « المعتمد » بالأسد ويصور قصر الملك ببيت الأســـد « عرين رئاسة » دلالة على القوة والمنعة وهيبة الجانب ويصور المـــاء الذى يفيض من أفواه الأسد أشبه بالزئير ويصور أجسام الأسد وهى تلمع فى أشعة الشمس أشبه بالنضار والذهب الخالص .

ويصـــور المـــاء يسيل من أفواه الأسد أشـــبه بالبلور وهو فى تصويراته يخيف أكثر مما يمتع ويدخل الرعب والخوف أكثر مما يدخل البهجة والسرور .

---

(٢٨) ديوان ابن حمديس ٥٤٧ .

ثم يصور ماء البركة والنسيم يهب على صفحتها وكأنه يصور معركة حربية فيذكر أدواتها وأسلحتها .

فهو في تصويره لمياه البركة يصوره تارة مندفعا يحدث في اندفاعه صوتا كأنه زئير الأسود .

وتارة يصوره سيوفا ذابت من غير نار لتتجمع في البركة فالماء وهو يفيض من أفواه الأسد فيجري في القنوات أشبه بالسيوف المصقولة

وهو في تصويره للهواء يصوره بأنه ذلك النسيم العليل الذي داعب صفحة الماء فجعل من تموجاتها دروعا تبدو كأنها متقنة النسيج محكمة الصنع .

وقد صنع حول البركة أشجار صناعته عليها تماثيل في هيئة الطيور تضاء بالأنوار وتقذف بالماء من عل مثلما تفعل الأسود وذلك على ضفاف البركة .

فالأشجار المذهبة أشبه بالسحر وأغصانها تتعلق بها طيور يندفع الماء من منقيرها فيحدث صفيرا وتغريدا مع أنها خرساء لا تنطق وعجماء لا تبين .

ويصور الشاعر الماء المندفع من مناقير تلك الطيور بالفضة الخالصة لصفائه .

ويصور هذه المحاسن بانسان يبتسم ولكن ثغورها زهر النجوم في العلياء والكواكب في السماء .

موازنـــات بين القصـــيدتين

يقـــول البحترى :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنســـات اذا لاحت مغانيها
يحســـبها أنهـــا من فضـــل رتبتها ... تعـــد واحـــدة والبحـــر ثانيها

ويقول ابن حمديس :

وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناى بحر عجائب مسجورا

فبركة البحترى تعد واحدة والبحر ثانيها •

أما بركة ابن حمديس فهى بحر عجائب مسجور زاخر بالغرائب والأعاجيب وقد تفوق ابن حمديس فى وصف بركته بهذا الوصف وأتى بالألفاظ التى تؤكد هذا المعنى « بديعة » : أى لا مثيل لها فى الاتقان والحسن « عجائب » : أى بها كل ما يثير الدهش لغرابته وجماله •

« مسجور : مملوء » وبذلك دلت على الامتلاء بكل ما هو مثـــير وعجيب فالمتعة متجددة ولا تكاد تنتهى •

أما البحترى فاكتفى بوصفها بأنها تفوق البحر جمالا وسعة وجلالا واذا نظرنا الى أن البحـــر الذى هو من صنع الله سبحانه قد ارتفعت عليه هـــذه البركة فى المنزلة والاتقان لقلنا ان البحترى قد بالغ حتى جاوز حدود الايمان مما جعل كلامه سمجا ممقوتا •

يقـــول البحترى :

اذا علتها الصـــبا ابدع لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حراشيها

ويقـــول ابن حمديس :

وكأنما نســـج النسيم لمـــائه ... درعـــا فقدر سردها تقديرا

كلاهما يتحدث عن النسيم وهو يهب على البركة

فالبحترى جعل الصبا مثل الجواشن المصقولة

وابن حمديس جعل النسيم يكسو البركة ثيابا أشبه بالدروع السابغات .

وابن حمديس خرج بنا عن نطاق وصف الطبيعة الى معركة حربية وهذا لا يناسب ما يقصده من اثارة المتعة عند المتلقى يقول البحترى :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجرى فى مجاريها

ويقول ابن حمديس :

وتريك فى الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

فماء البركة عند البحترى أشبه بالفضة المذابة فى السبائك أما الماء الذى يساقط من الصهريج عند ابن حمديس فهو أشبه بالزبرجد فوقه اللؤلؤ المنثور .

وهما وصفان بديعان وصورتان جميلتان .

يقول البحترى :

اذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ويقول ابن حمديس :

ضحكت محاسنه اليك كأنما جعلت لها زهر النجوم ثغورا

فابن حمديس يصور أن مشاهد الفن والمحاسن التى أحاطت بهذه البركة تتبادل الفرح والسرور وتضحك من يزورها لبهائها ورونقها وحسنها وأن زهر النجوم ثغور لهما .

ومن باب أولى فان هذه المحاسن تضحك الممدوح وتدخل السرور

على قلبه والحبور الى نفسه لأنه يعيش فى هذا العرين ويتمتع بالنظر الى تلك المحاسن ويتملى بمشاهدة ذلك الجمال •

أما البحترى فهـو أقدر على الصوغ والابداع من ابن حمديس فهو يصور لنا مشهدا رائعا بديعا يخلب الأبصار وذلك اذا جن الليـل « انه مشـهد نجوم السـماء وقد استقبلتها صفحة المـاء المصقولة الصافية كأنها المرايا فانعكست عليها صورة هذه النجوم انعكاسا يحكى الحقيقة فيظن الرائى من أجل ذلك أن هنا سماء أخرى تناثرت عليهـا النجـوم •

وأتى بكلمة « ركبت » التى تصـور كأن السـماء نقلت من مكانها العلوى وركبت أجزاؤها فى هذا المكان السفلى »(٢٩) •

وتدل على أن هذا العمل من فعل صانع ، ماهر أتقن صنعته وبعد : فقد كانت القصيدتان تصـويرا لمظاهر الحضـارة والعمران فى عهد الدولة الأندلسية والدولة العباسية •

فبالنسبة لابن حمديس قصيدته التى وصف فيها البركة أكسبته الشهرة وذيوع الصيت فى فن الوصف مما حدا ببعض الباحثين الى أن يقول عن هذه القصيدة : « وهى تحفة فنية مؤثرة الصور والمناظر وتكفى لوصف مدينة كلها قصور وبها عد ابن حمديس من فحول شعراء الوصف فى الأندلس لأنه نقل الينا صـورة البركة فى دقة بالغة حتى كأننا نرى بعينه ونسمع بأذنه ونحس بأحاسيسه »(٣٠) •

وبالنسبة للبحترى فقد أبدع فى وصف البركة التى أنشأها الخليفة

---

(٢٩) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ١٠٢ •

(٣٠) ابن حمديس الصقلى د• سعد اسماعيل شلبى ١٥٠ •

المتوكل فى قصره الجعفرى الذى كان آية فى الروعة والبذخ فقد بطن جدرانه من الداخل بالرخام المذهب ونقش على هـذه الجدران تماثيل من الذهب الخالص واتخذ به بسطا ونمارق حشوها من الحرير ، وكانت البركة قد بطنت أرضيتها وجدرانها من الفضة الخالصة(٣١) .

مما جعل البعض يقول عن ابداع البحترى « ولو لم يكن للبحترى الا قصيدته السينية فى وصف ايوان كسرى وقصيدته وصف البركة لكفتاه »(٣٢) .

دكتور / احمد محمد على شومان
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة بأسيوط

---

(٣١) تاريخ بغداد لابن الخطيب ١ : ١٠ .
(٤٢) تاريخ بغداد لابن الخطيب ١ : ١٣ .

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ ابن حمديس الصقلي وحياته من شعره للدكتور سعد اسماعيل شلبي مطبعة مكتبة غريب ٠

٣ ـ ابن حمديس الصقلي للدكتور علي مصطفى مطبعة دار المعارف ١٩٦٣

٤ ـ الأدب العربي في الأندلس للدكتور عبد العزيز محمد عيسى مطبعة الاستقامة الطبعة الأولى ١٩٣٦ ٠

٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١ ٠

٦ ـ الخيال الشعري في شعر الوصف عند البحتري للدكتور طه أبو كريشة مكتبة الملك فيصل الاسلامية الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣

٧ ـ ديوان ابن حمديس تحقيق الدكتور احسان عباس طبعة بيروت ١٩٦٠ ٠

٨ ـ ديوان البحتري تحقيق حسين كامل الصيرفي طبعة دار المعارف الطبعة الثانية ٠

٩ ـ زهر الآداب وثمر الألباب للحصري تحقيق محيي الدين عبدالحميد شرح الدكتور زكي مبارك دار الجيل بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٢ ٠

١٠ ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده لأبي الحسن بن رشيق القيرواني الطبعة الأولى القاهرة دار الجيل ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م ٠

١١ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي مطبعة دار بيروت ٠

١٢ ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص لعبد الرحيم بن أحمد العباسي تحقيق محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة مصر ٠

١٣ ـ مراسم الوفاء العربي للدكتور عبد السلام سرحان مطبعة كويك سمارة بالعتبة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م ٠

١٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس بن محمد بن خلكان تحقيق الدكتور احسان عباس طبعة دار الثقافة ـ بيروت ٠